التوقيت القديم

ان من يقرأ الكتابات الاثرية على الصخر والحجر والاجر وغيرها يرى ميل الانسان شديداً الى الكتابة وقائع زمنهِ وذكر وقت حدوثها وقد اضطلع الناس على تسمية كتابة الحوادث تاريخاً واما ذكر الوقت الذي جرت فيهِ الحادثة المروية فم نجد لهُ اسماً مخصوصاً في لغتنا العربية يدل عليهِ كما تدل كلمة Chronology او Chronologie بالانكليزية او الفرنسارية وفي امثالها من لغات الشعوب الراقية لان علماء تلك الامم لما احتاجوا الى تسمية هذا العلم الحديث اخذوا من اليونانية اصلاً وركبوا منهُ الكلمة واما نحن فاننا كثيراً ما نجد في لغتنا العربية كلمات يمكن ان نعالجها بالعدل عن اصلها فتؤدي المعنى المطلوب وعملاً بذلك اخذنا كلمة توقيت لاداء المعنى المقصود . وكلمة توقيت مصدر وقّت وهي على ما في كتب اللغة ما جعل لهُ وقت يعمل فيهِ

ويتضح من القاء النظر على الآثار القديمة المختلفة عن الامم السابقة ان مناهج توقيتها مختلفة غير ان اهم تلك المناهج ما وجد على كتابات الاشوريين . والاشوريون على ما يعلم من امرهم كانوا اهل نشاط وعمل يصرفون وسعهم لتسهيل اعمالهم والسير بها في سبيل لا يجدون في اجتيازه عثاراً فمناهج توقيتهم موضوع بحيث لا يماثلهم فيهِ غيرهم من الامم وبحيث لا يتطرق اليهِ الخطأ في حسابهم ذلك انهم كانوا في عقودهم ومراسلاتهم وتاريخهم وغير ذلك من شؤونهم القلية التي كانوا ينقشونها على الاجر المشوي او المشمس او على الصخر والحجر او غيرها يوقتون سنتهم بنسبتها الى اسم زعيم يقيمونهُ لتلك السنة ويعرفونهُ باسم ليمو فاذا ارادوا توقيت حادثة قالوا جرت في زمن الليمو فلان فعرفت السنة من معرفة صاحبها لان القوم كانوا يحفظون جداول باسماء اولئك الزعماء فلا يفوتهم علمها عند مسيس الحاجة . وكان تلك الجداول كانت مستفيضة بين الناس لانهُ ظهر منها حتى الآن عددٌ كبير

وقد ظهر للباحثين ان الزعامة المحكي عنها تحاكي منصب الاراختة عند اليونان والارخون هو الرئيس او المقدَّم

ومما يبرهن على مكانة الليمو عند قومهِ ان الملوك في صدر الدولة كانوا يتولون هذا المنصب في بدء تبوئهم سرير الملك

وكلة ليمو غير معروفة الاصل تماماً وكاد قراء الاثر لا يضبطون قراءتها لولا انها وردت

ايضاً في الصفائح الاترية المكتوبة بالفنتين الاشورية والارامية فوجدها العلماء مكتوبة بالاولى بما يقارب ٩٠٠ وبالثانية بما يقارب ٧٠٠ فاذا اعتبرنا غرض هذه الرعامة على ما هو ظاهر على الآثار وهو اطلاق اسم الزعيم على السنة ليكسبها صفة العلمية ففي ذلك وسيلة مساعدة الاخرى التي تقتضيها طبيعة الرعامة جمع آراء الامة على تسودو فيها ومن هذا نرى ان الكلمتين العربيتين لم ولأم تؤديان معنى الجمع والسيادة لا سيما وان الرجل الملم انما هو الذي يجمع القوم

ولا غرابة في اقتراب الكلمات الاشورية والارامية من العربية لان هذه اللغات شقائق ولمن اخوات اخرى من الساميات وكلهن اخذن اصولاً واحدة ثم توسعت كل منهن على اهوائها

ولم يهتد الباحثون الى حقيقة منشإ هذا التوقيت الاشوري لانهُ لا يخلو اما ان يقال باخذه في جملة ما اقتبسهُ الاشوريون عن سابقيهم الكلدان او غيرهم من الامم التي كانت لها السيادة والصولة في ما بين النهرين او ان يقال بنشأتهِ عندهم وهذا ارجح لانهُ لم يظهر من آثار الكلدان ما يدل على اعتمادهم هذا النهج فضلاً عن ان وطنية نشأتهِ الاشورية ظاهرة من قدم عهدهِ بينهم فترى انهُ وجدت كتابة اثرية تنسب لريمون نيراري الاول (يظن انهُ ملك حوالي سنة ١٣٤٠ ق م) وهي موقتة في زمن اليمو شلمصّر ابن الملك (وهو الذي خلفهُ على اريكتهِ حوالي سنة ١٣٢٠ ق م)

ونحن نعلم ان اشور غلبت الكلدان على ملكهم في زمن تغلث اوراس خلف شلمصر وان الاشوريين الغالبين لم يكونوا من صبغة مغلوبيهم في الجنس واللغة والعادات والمناهج وانهم بامتزاجهم بالكلدان اخذوا عنهم كثيراً من السنن والشؤون ولكنهم صبغوهم بصبغتهم الساميَّة في اللغة والعادات حتى كادت تضيع من بينهم ميزات الكلدانيَّة — كل هذا لا يمكن ان يتم وقوعهُ في زمن قصير ولا يستطاع معهُ القول باخذ الغالبين منهاج توقيتهم عن المغلوبين لا سيما وان الكتابة الاثرية دلت على ان المنهاج كان معتمداً قبل الفتح

بقي ان نذكر امراً آخر يستفاد من التاريخ ذلك ان المؤرخ سيمبليشوس Simplicious يقول ان كاليستس Kalisthenes ارسل من بابل الى ارسطوطاليس الارصاد الفلكيَّة التي وجدها هناك من صنع الكلدان وان زمنها يبتدئ قبل ارسالها بالف وتسعمائة وثلاث سنوات ونحن نعلم ان كاليستس كان مرافقاً للاسكندر المكدوني في فتح بابل سنة ٣٣١ ق م فاذا اعتمدنا ذلك يكون ابتداء تلك الارصاد سنة ٣٢٣٤ ق م وهو زمن يقرب من العصر المحسوب لنشأة الدولة الكلدانية

واذا صحّ ما نُسب الى الكلدان من نهضة العلم والادب عقيب تأسيس دولتهم باهتمام ملوكهم الاولين كما دلت على تأييده القبول الكتابية الاثرية المشهورة بنسبتها لملكهم حمورابي صحّ لك الاستنتاج ايضاً ان القوم اعتمدوا في توقيت ازمنتهم نتيجة الارصاد الفلكية كما اعتمدها من بعدهم خلفاؤهم البابليون على عهد نبوناصر فاقتبسها منهم اليونان

واما البابليون فانهم لما استقلوا عن الاشوريين السائدين فيهم لم يعتمدوا منهاج الاشوريين مع اعتيادهم عليهِ قروناً طوالاً بل شرعوا يوقتون بما مرَّ على ملوكهم من السنين وهم جلوس على الاريكة . كأن يقولون في السنة العاشرة لملك فلان . او يوقتون بسني الاسرة المالكة فيجرون في توقيتهم على نمط الموقتين بسني الملوك . الاَّ ان الصكوك وسائر ما كانت تقتضيهِ المعاملات لم تكن تجري في توقيتها على هذا المنهاج وذلك منذ نشأت الدولة او بعبارة اخرى من ايام حمورابي بل كانت توقت بالحوادث المهمة التي طرأت على البلاد واثرت في الاهلين كالحروب والفتوحات واختفار الترع وامثالها

وهذا الضرب من التوقيت يعسر حلهُ على الباحثين في هذا العهد لان الحوادث المتخذة قاعدةً ويراد الرجوع اليها ليست مما يسهل معرفة زمان وقوعهِ ليستطاع حسبان الوقت المقصود منها

وظلوا على هذه المناهج حتى زمن ملكهم نابوناصر فاتخذوا الارصاد الفلكية وصاروا يعتمدون التوقيت منذ اتخاذها اي سنة ٧٤٧ ق.م

اما المصريون والفرس فالظاهر انهم جروا على منهاج التوقيت بسني ملوكهم ولذلك لا يظن ان لهم مناهج خاصة بخلاف العبرانيين فان المعروف عنهم انهم منذ تحضروا وتأسست دولهم وشرعوا يكتبون جعلوا يعتمدون في توقيتهم الزمن الذي ظنوا الخليقة جرت فيهِ او الزمن الذي حسبوهُ لعصر ابي الاباء ابرهيم وهو سنة ٢٠١٥ قبل المسيح

اما اليونان فانهم انشأوا الالعاب الاولمبية ترويضاً لاجسامهم وتمريناً لقواها فاصبح حضيض جبل اولمبوس (الفاصل بين مكدونيا وتساليا والمعروف اليوم بجبل لاشا) مشهداً عظيماً يقصدهُ الناس من كل فج عميق للمشاركة في الالعاب او لمشاهدتها وذلك مرةً كل اربع سنوات . وفي سنة ٧٧٦ ق.م حاضر فيهِ رجلٌ من مشاهير محاضيرهم اسمهُ كوريبوس Coraebus فنال قصب السبق وزُفَّت حصاة غلبهِ في اقطارهم ودوّنت على اثرها شهرة الالعاب فاتخذوها زمناً يرجعون اليهِ في توقيتهم

وبما انهم كانوا يطلقون على زمن الالعاب اسم اولمپياد Olympiade ويجعلون الفترة

اربع سنوات بين كل اجتماع وما يليهِ شرحوا يوقتون بالسنة والاولمبياد كأن يقولون مثلاً في السنة الرابعة من الاولمبياد العشرين فلا تفوت احدًا منهم معرفة الزمن المقصود . وكلمة اولمبياد مشتقة من اسم الجبل اولمبوس

وبما ان نشأة هذه الالعاب معروفة العصر فمعرفة ما أُرِّخ بها ليس عسيرًا على باحثي هذا الزمن . ثم ان اليونان زمنًا آخر يرجعون اليهِ في توقيتهم وهو سنة ١٥٦٢ ق م ويعرفونهُ بزمن سيكروب Cécrops نسبةً لرجلٍ انشأ نزالةً في بلادهم . ولما استحل امر الاسكندر المكدوني جعل قومهُ يوقتون بزمنهِ اي سنة ٣٢٤ ق . م

وكأن اليونان شعروا بما جنوهُ من العزة والمنعة عقيب فتوحاتهم ورأوا انهم غيّروا بها كثيرًا من الشؤون القديمة فنهضت البلاد التي دانت لسلطتهم واتخذت مناهجهم وما لبثت ان تدرجت في انحال مناحيهم فادركوا ان هذا الانقلاب عظيم الاثر في نفوس الناس وانهُ يخلد ذكر زمانهِ فجعلوا كل فتح تسنّى لهم زمنًا يرجع اليهِ المتنفعون بهِ في توقيتهم واعظم ما كان ظهور ذلك عقيب تأسيس الممالك التي ولّيها خلفاء الاسكندر

فالسلوقيون الذين ملكوا سوريّة وبين النهرين وامتد ملكهم الى اقطار شاسعة جعلوا قاعدة توقيتهم زمن نشأة دولتهم اي سنة ٣١٢ ق م وعُرف ذلك بالزمن السلوقي وهو اكثر الازمنة القديمة انتشارًا فترى كثيرًا من الآثار تعتمدهُ لاسيما في سورية كما يرى مما عرف عن مدائنها المهمة كانطاكية وافامية ودمشق وصيداء وطرابلس وصور وغيرهن

واما الرومانيون فانهم كانوا يوقتون اولاً بزمن بناء عاصمتهم رومة اي حوالي سنة ٧٥٣ ق . م فلما كانت سنة ٢٤٥ لرومة اي سنة ٥٠٨ ق . م انقلبت ملكية الرومان الى جمهورية شرع القوم يوقتون من ذلك العهد وظلوا على نهجهم هذا حينًا من الدهر . ثم ان المدائن والاقطار الشرقيّة خصوصًا لما دانت للسلطة الرومانية اخذت توقت بزمن خضوعها اعتبر ذلك بما كان من القطر السوري عقيب حملة بومبيوس الروماني عليهِ واكتساحهِ سنة ٦٣ ق . م فانهُ لما دان للقوة الغالبة وضُمَّ للدولة الرومانية شرع القسم الاعظم منهُ يتخذ سنة الفتح زمنًا لتوقيتهِ واهم المدائن التي تحت ذلك النحو انطاكية وايلا ودورا وسلوقية وطرابلس وغيرهن

ثم عاد الرومان فاتخذوا قاعدةً اخرى لتوقيتهم تبتدئ سنة ٤٨ ق . م وتُدعى الزمن القيصري الانطاكي ولكن البحث في الآثار يدل على ان تلك السنة لم تعتمد زمنًا الا في عكاء من سوريّة حتى ان انطاكية نفسها اعتمدت سنة ٤٩ ق . م واتخذ يوليوس قيصر سنة ٤٥ ق . م قاعدةً لزمن يعرف باليولياني نسبةً اليهِ وجرت عليهِ بعض الاقطار

وسنة ٣٨ ق م اجتاح اغسطس قيصر بلاد اسبانيا واسمها يرشلونة وافتتحها فنشأ من فتوحها عيدٌ يرتقون به ويعرف بالزمن الايبري فجرت عليه بعض المدن . لكن البلاد لم تقف في متابعة عاصمة الدولة السائدة على قاعدة توقيتها بل كانت كل بلدة منها تتخذ ما شاءت من القواعد ولذلك تعددت في تلك الآونة القواعد حتى انا نرى اردنا ان نسرد ما عرف منها اليوم لضاقت عن جدولها صفحة من المقتطف

فتعداد هذه الازمنة وتنوع ضروب التوقيت من اعضل المسائل التي تعرض لعلماء الآثار في حل الكتابات الاثرية المختلفة عن تلك العصور ومن اعسرها ايضاً

اعتبر ذلك بما عرض لعلامة كلرمون كانو الاثري الفرنساوي المشهور فقد ارسل اليه المستر ليتفت فيس قنصل الدانمرك في بيروت عشرات من الكتابات الاثرية التي وجدها في حوران فقرأها واثبتها في الجزء الاول من كتابه النفيس المسمّى الآثار الشرقية وكان من جملتها اثر وجده المستر ليتفت في قرية الجيدل من حوران مكتوب باللغة اليونانية ويشير الى بناء حصن مما اعتاد الرومان تشييد امثاله واسم بانيه روفوس ماغنوس اي الكبير وفي هذا الاثر توقيت غريب ذلك انهُ قيل فيه سنة ٦٨٩ لدمشق

ولقد كان الاثريون يعهدون الدماشقة يرتنون بالزمن السلوقي الذي يبتدئ سنة ٣١٢ ق م وعليه تكون الكتابة موقتة سنة ٣٧٧ مسيحية . الاّ ان ورود تواريخ لدمشق بعد ذكر السنة ٦٨٩ لفت انظار العلامة كلرمون كانو الى ان كتبة الآثار لم يوردوا مثلها من قبل . فخطر لهُ ان موقع الجيدل بين اراضي دمشق وحوران . والاولى كانت تعتمد الزمن السلوقي كما تقدّم واما الثانية فتتبع قاعدة بصرى وهذه تتخذ سنة ١٠٥ ق م زمناً لتوقيتها فاستنتج من ذلك ان نسبة زمن الكتابة لدمشق تخصيص لها به يخرجها عن الظن بمتابعة بصرى ولكن بقي ثمت اشكال آخر وهو ان هذا التخصيص لم يأتِ به غير هذا الاثر ولا بدَّ فيه من سبب آخر غير ظاهر القصد من الرجوع فيه للزمن السلوقي بحيث لو كان المقصود ذلك الزمن السلوقي لاشير اليه بكلمة اخرى لا تختصهُ بالدمشقي

وبعد امعان الفكرة طويلاً ارتأى رأياً ربما كان اقرب الى الصواب من متابعة الزمن السلوقي ايجاز ذلك ان المؤرخ جوليوس عند ذكره بدء السنة عند الشعوب المختلفة يقول ان الاثينيين يبتدئون بسنتهم من الانقلاب الصيفي واما الاسيويون فيبدأون بها في الاعتدال الخريفي بخلاف الرومان فانهم يبدأون في الانقلاب الشتوي ولكن العرب والدماشقة يبدأون بسنتهم في الاعتدال الربيعي . وعلى هذا جزم ان الدماشقة كانوا يعتمدون

الزمن السوقي ولكن سنتهم لا تبتدئ في اول تشرين الاول (اكتوبر) كما يبتدئ عامة معتمدي الزمن السوقي من اليونان ومن جرى مجراهم من السوريين والشارقة بل تبتدئ في الثاني والعشرين من آذار (مارس) وبهذا لا تطابق بين سني الزمنين الشرقي والدمشقي . ورأى ايضاً ان المماشقة لم يتخذوا زمناً مخصوصاً بهم كما فعل اهل بصرى بل اختلفوا عن اصحاب الزمن السوقي في بدء السنة فقط بحيث لا يكون الفرق بين الزمنين الا نحواً من ستة اشهر

فمن هذا المثل يتضح للقارىء عظم العناء الذي يعانيه اهل البحث والتدقيق في حل مشكلات التوقيت القديم

على ان تعدد قواعد التوقيت لم ينحصر في سورية وغيرها من الاقطار الشرقية بل ان الرومان اكثروا من تعيين ازمنة يرجع اليها في التوقيت وحسبنا ان نشير الى ان الاسكندرية اعتمدت زمناً يبتدئ سنة ٣ للمسيح وان سنة ٧ م جعلوها قاعدة واطلقوا عليها اسم الزمن الاسكندري المصحح ثم اعتمد المصريون بعد ذلك زمن ديوكليتيانوس سنة ٢٨٤ م وسموه زمن الشهداء واعتمد الارمن زمن الجمع الخليكدوني سنة ٥٣٢ واما في القسطنطينية فانهم كانوا يعتمدون زمن الخليقة حسبما حسبوه اي سنة ٥٥٠٨ ق م ويُدعى زمن قسطنطين وظل القوم عليه في روسيا حتى زمن بطرس الاكبر

وثمت ازمنة اخرى موضعية او غير عامة الاّ ان اهم الازمنة المعتمدة بين الناس لهذا العصر زمنان الاول المسيحي ويبتدئ منذ ١٩٠٧ سنة والزمن الهجري ويبدؤه منذ ١٢٨٥ سنة اي سنة ٦٣٢ م

وقد ابتدأ الناس يستعملون التاريخ المسيحي منذ نحو ١٤٠٠ سنة فاتى رجلاً اسمه ديونيسوس اكسيغيوس رئيس دير روماني حسب ميلاد المسيح سنة الاولمياد المئة والرابع والتسعين او سنة ٧٥٣ من تأسيس رومية وقال باستعماله مبدأ للتاريخ فشاع استعماله رويداً رويداً من غير ان تعضده سلطة دينية او زمنية وهو الآن اكثر التواريخ شيوعاً . واول من جعل الهجرة بداءة التاريخ الهجري من دون اضافة السنة الى شيء تعرف به الامام عمر بن الخطاب

وقد حدانا الى الكلام في هذا الموضوع ما نراه من تهافت بعض ادبائنا على معرفة آثار بلادهم التي يعنى عامة الفرنجة بدراستها وحل اشكالها . فعسى ان تفيد ابحاثنا وتغني الشبيب عن مراجعة المطولات

ر . ن